من تراب الطريق! (٢٤٩) النبى الروائى (*)

لم أصدق هذه التسمية : " النبى الروائى " التى أطلقت على الروائى الروسى ليو تولستوى، إلا بعد أن قرأت سيرة حياته بالإضافة إلى بعض أعماله .. قرأت " الحرب والسلام " و " أنّا كارنينا " قبل أن أقرأ سيرة هذا الأديب الروائى الفذ .. وقع فى يدى فى أغسطس ١٩٥٩ كتاب الهلال .. بعشرة قروش .." اعترافات شبابى " .. فيه يحكى تولستوى اعترافات شبابه، أو سيرة حياته فى مرحلة الشباب .. ولكن لماذا أطلقوا عليه أنه " النبي الروائى " ؟

الجواب أن هذا الروائى الفذ (١٨٢٨ ــ ١٩١٠)، كان صاحب رسالة يدفعها إلى غايتها قلب كبير وحس صادق دقيق عميق .. كان غريبا وهو من سلالة النبلاء، وأصحاب الإقطاعيات والضياع، أن ينتهى رافضا لهذا من خلال نضج إنسانى رفيع عبر رحلة امتلأت بالتعريجات والمنعطفات .. تلمح إحساسه الإنسانى من بواكير حياته .. تراه وسنه بالكاد (٢٠) سنة يحاول إنشاء مدرسة لتعليم الفلاحين، وفى منعطف متعرج يندفع بعد ذلك وراء الملذات فى موسكو وبطرسبورج، ثم يلتحق بالجيش (١٨٥١) ويحارب فى القوقاز، ويشترك (١٨٥٤) فى الدفاع عن سباسيتول، وهى التجربة التى أمدته بمادة رائعته : " الحرب والسلام " .

فى أعقاب إخفاقه الثانى فى إنشاء معهد لتعليم الفلاحين، ثم سياحته فى أنحاء وربوع أوروبا، أخذت الشكوك التى كانت تنتابه منذ شبابه تزداد

(*) المال ٢٠٠٩/٤/٢٧

حدة، ومر نحو عام (١٨٧٩) بأزمة روحية انتهت به إلى ارتداده إلى الإيمان بالمحبة المسيحية، وإلى اعتناق مبدأ المقاومة السلبية للشر، وجعل يسجل ما مر به من منعطفات وتعريجات حتى بلغ الإيمان في " اعترافاته " التى كتبها بصدق لافت، روى فيها هذا الفيلسوف الروائى الحكيم كل الأطوار التى عرضت له فى شبابه حتى تكاملت شخصية الإنسان الذى صار له كيان خاص له اتجاهاته وطابعه الذى صدق معه وأخلص له ما بقى من حياته .

كان تولستوى قد تزوج ووهب ذرية عديدة مكفولة الثروة والسعادة فى ضياعه الواسعة، بالمقاطعة التى كان يملكها .. ولكن تولستوى يعطى ظهره لهذا كله، ويوزع أراضيه الواسعة وخيرات ضياعه على الفلاحين، ويعتكف فى صومعته يستقطر حكمة ما وصل إليه، ويسخر قلمه للدعوة إلى إيمانه الجديد فى سلسلة أعمال عرض فيها خلاصة تجربته ودعوته .. فكتب : " عرض مجمل للكتاب المقدس "، و " ما أومن به "، و " ماذا يجب أن نصنعه إذن " و " قانون المحبة وقانون القوة " .. ولكن مسلكه وما أخذ به نفسه يشكلان صورة نادرة للصدق مع النفس والغير .. تراه لا يستبقى لنفسه من أملاكه الواسعة التى جعل يوزعها على الفقراء، إلاّ ما يمسك به الرمق، ويستوحى قلبه وضميره ليس فقط فيما يكتبه، ولكن أيضا فيما يفعله بقلب رحيم وضمير حى .. يدعو إلى الإخاء والسلام، وينبه إلى أن الدنيا بلا حروب تتسع للجميع .. يسمع به المهاتما غاندى فيقتدى به فى دعوته، والإمام محمد عبده فيراسله، وتلتفت الدنيا إلى هذه الدعوة التى أطلت على الإنسانية بلا نبوة . تبحث عن صلاح المجتمعات بصلاح النفوس، وتنبّه إلى المسئولية الخلقية العظمى الملقاة على الفنان، ويضرب تولستوى المثل بنفسه فيتخلى عن جميع ممتلكاته، ولا يثنيه اعتراض زوجته والخلاف الشديد الذى شجر بينهما، ولا يرده عما انتواه ونفذه صدمة انضمام أولاده إلى زوجته واعتراضهم معها عليه .. لم يبق إلى جواره إلاّ ابنته الصغرى الكسندرا .. هى فقط التى صاحبته ولازمته حينما ترك بيته وما وراءه من

الدنيا سنة (١٩١٠) .. ولم يعش هذا المهاجر أو النبى الروائى إلاّ بضعة أشهر بعد مفارقته إقطاعياته، فمات فى إحدى محطات السكك الحديدية، وربما لو لم تكن معه وقتها ابنته الوفية الكسندرا ما عرفه يومها أحد ..

لو أردت أن تلخص هذه الشخصية الفذة، وأثرها الهائل العريض، لما وجدت أدق فى التعريف بعبقريته ــ أفضل من أن مهجته التى اهتدى إليها وفارق الدنيا عليها كانت هى " الصدق مع النفس " !